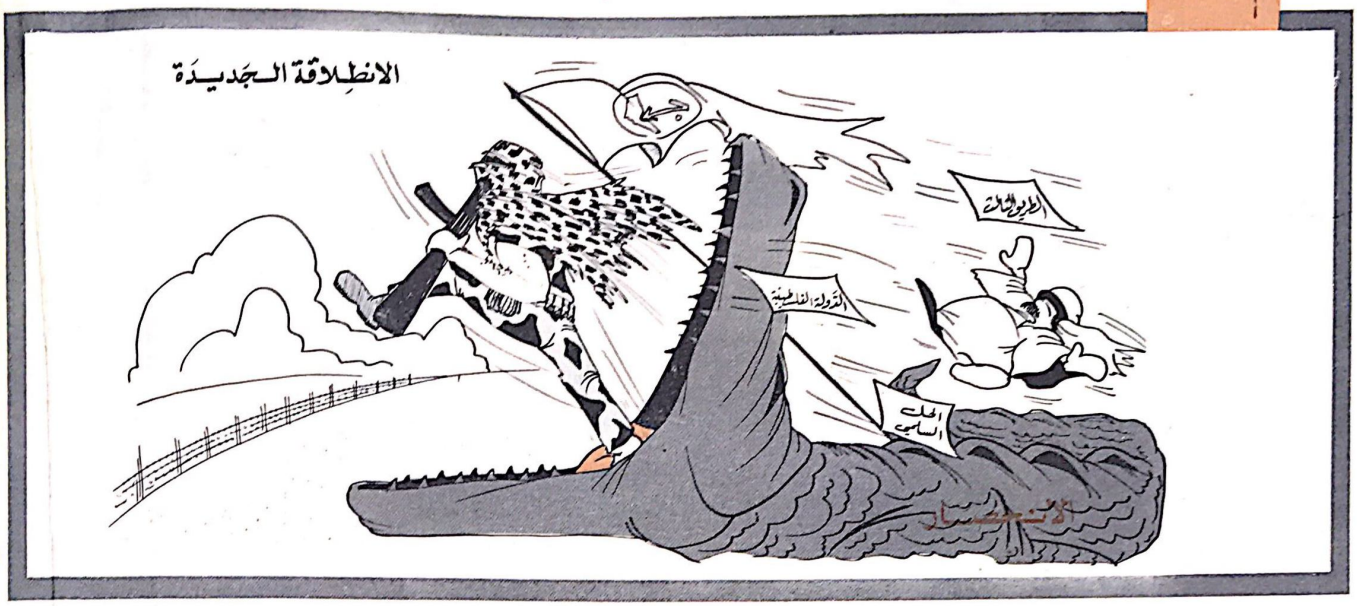

خواطر ومقارنات صغيرة من جمهورية جورجيا السوفياتية

جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفياتية ، ليست اكثر جمهوريات الاتحاد السوفياتي تقدما ، ولا هي مركز جذب سياحي كما هي جمهوريات الشمال .. ومع ذلك فاينما توجهت في انحائها تفرض عليك الاشياء ان تجري الكثير الكثير من المقارنات بينها وبين الاشياء في بلادنا .

كنا اربع عشرة ضيفا من لبنان وفلسطين واليمن الديمقراطية ، وكانت سيارة الباص تنقلنا من العاصمة تفليس الى سوفوخوز (مزرعة للدولة) على بعد مائة كيلومتر . السهول على جانبي الطريق كلها خضراء تضج بالخصب والعطاء .. وفي لحظة ما التفت الى رفيق في الوفد اللبناني ، وكأنه كان يقرأ افكاري حين قال :

« لو اقتلعت الحيطان التي تفصل بين ارض فلان وارض فلان في بلادنا .. كم ستزيد مساحة الارض الصالحة للزراعة !! »

فعلا انه اشد الخواطر الحاحا على الذهن . عندما تقف امام مئات الكيلومترات التي لا يقطعها حائط ولا يمزق وحدتها تنازع ملكية . تسير فيها الحاصدات دون اي توقف او تمهل او تكويع ..

انه نفس الخاطر الذي كان يلح علينا في مدينة برلين عاصمة جمهورية المانيا الديمقراطية حيث الشوارع الفسيحة المليئة بالخضرة ومساكب الزهور وحيث الابنية الشاهقة مصطفة كمربعات الشطرنج تاركة فيما بين كل بنايتين مربعا اخضر .. فالارض في البلاد الاشتراكية هي ملكية اجتماعية ولكل انسان هناك حق ان تطل غرفته على حديقة او شارع هو احلى من الحديقة . لا اعتقد ان في برلين كلها غرفة واحدة لا يتوفر لها ذلك . تماما على عكس ما يفعل راسماليو بلادنا وملاكوها العقاريون الذين يتطاولون حتى على القانون الذي وضع لمصلحتهم هم قبل اية مصلحة اخرى .. من اجل الا يتركوا اي متر من الارض دون ان يعمروه ويؤجروه ..

هناك كل شيء ، بما فيه القوانين ، لخدمة راحة الانسان وصحته ، وهنا كل شيء بما فيه الانسان لخدمة جيوب الراسماليين والملاكين العقاريين !!

●●●

وفيما كانت تتتابع في اذهاننا المقارنات وكلها من هذا النوع ، وصلنا الى المزرعة .. مدينة حديثة جدا .. بيوتها القرميدية ذات الطابقين منتشرة بين الحدائق والجنائن ، لا يبين منها سوى سقفها الاحمر وانتينات التلفزيونات .. انها بيوت فلاحي المزرعة .

وبعد الاستقبال البلدي الحار وتبادل الهدايا التذكارية وكلمات الترحيب انتقلنا الى داخل الحقول .. مئات الهكتارات لكل نوع من انواع المزروعات .. مساحات لا نهاية لها من دوالي العنب ومثلها للتبغ ومثلها للاجاص والتفاح ، وهكذا .. ثم وصلنا الى ما يشبه المدينة : آلاف البيوت تحيط بها المراعي الخضراء .. انها مركز تربية المواشي ..

وعند الظهيرة .. اصيبت رفيقة من اعضاء الوفد بدوخة ووقعت ارضا .. كان ذلك في وسط الحقول وانتابنا خوف عليها نتيجة توقعنا ان تكون المسافة طويلة جدا بين المكان وبين الطبيب . هرع احد المرافقين الى اقرب طريق داخل الحقول واتصل من هناك بالهاتف .. فلم تمض سوى دقائق قليلة حتى كانت تصل سيارة فيها طبيبة وممرضات ، عالجوا الرفيقة بسرعة بالغة . وسألنا المرافق : من اين جاء الطبيب ؟

فأجاب بدهشة : من اين ! من مستشفى السوفوخوز !

.. وفي هذه اللحظة بالذات ، كان علينا ان نتذكر عشرات ومئات القرى في بلادنا ، حيث يموت المرضى لعدم وجود طبيب ، او حتى في ارقى مدننا حيث يموتون من توفر الاطباء والمستشفيات التي تمتنع عن المعالجة قبل قبض المقدم والتأكد من قدرة المريض على دفع المؤخر .. ويا له من مقدم ومؤخر !!

وعلى سيرة الطب والقبض والدفع .. كان اصدقاؤنا في المانيا الديمقراطية كما في الاتحاد السوفياتي ، يدهشون حين كنا نقول لهم ان معالجة المرضى في بلادنا تتطلب مالا .. كانوا يدهشون تماما كما لو ان احدا قال لنا ان هناك بلادا يدفع فيها السكان ثمن الهواء الذي يتنشقون !!

●●●

بعد الغداء في السوفوخوز اخذ احد المسؤولين هناك يشرح لنا بعض مشكلات العمل الزراعي .. قال ان العنب — وهو بالمناسبة من اهم منتجات تلك البلاد — يتعرض ابان نضوجه لمشكلة هطول البرد الذي يهطل هناك بغزارة شديدة فيفرفط عناقيد العنب ويتلفها . لكن العلم في الاتحاد السوفياتي قد توصل الى حل لهذه المشكلة ، اذ ان مراكز مراقبة الطقس المنتشرة في جميع انحاء البلاد تستطيع اكتشاف محمولات الغيوم ، فيجري استباق البرد باطلاق نوع من الصواريخ على تلك الغيوم ، فيستحيل البرد الذي تحمله الى قطرات ماء ندية تغسل المزروع وترويه بدلا من ان تتلفه . وعندما كنا نتابع عرضا سينمائية عن هذه التجربة ، كان علينا طبعا ان نقف امام مقارنة جديدة ، فنتذكر « سويسرا الشرق » التي يفاخر حكامها بانها تعيش على السياحة والخدمات ، دون ان يتمكنوا من تأمين الماء والكهرباء لبلد السياحة هذا .

في جورجيا ايضا زرنا معسكرا صيفيا للاطفال .. يقع المعسكر على بعد ٣٠ كيلومترا من العاصمة .. بناء ابيض بديع تحيط به الملاعب الرياضية ، وسط غابة رائعة الخضرة .. ومئات الاطفال بثيابهم الزاهية ووجوههم الفرحة المليئة بالصحة ، يعيشون عطلتهم الصيفية وفق اروع نظام .. نظام يبحث عن طاقات الابداع لديهم ويفجرها .. رحبوا بنا ببرنامج حافل .. قدموا احلى الرقصات الفولكلورية التي شاهدت بيروت مثلها قبل عام مع فرقة جورجيا للرقص الشعبي ، وقدموا اجمل الاغاني الشعبية .. ودعونا فتناولنا الغداء عندهم ثم قمنا فحضرنا بعض مبارياتهم الرياضية .

ان الاشتراك في هذا المعسكر لمدة شهرين يكلف الطفل الواحد روبلا واحدا !!

وتريدون الا نقارن ذلك بوضع اطفالنا الذين لا ملاعب لديهم ولا حدائق .. تتسابق على الغدر بهم شتى انواع الامراض .. ام تطلبون منا الرضى بأن مستوى حياة الاطفال هناك ما يزال دون مستوى حياة الاطفال لدى ٤ بالمئة من عائلات لبنان المالكة كل شيء فيه !!

●●●

رددنا هناك كثيرا .. وبالكثير من الصدق : ان هذا المجتمع يؤكد كم هي الاشتراكية جديرة بالتضحيات التي تقدمها الشعوب في طريق تحقيقها ■■

عدنان